مقال للأب متى المسكين

«لَا تَدِينُوا فَلَا تُدَانُوا»[1]
(لو ٦: ٣٧)

⊙✠⊙

الله يُبرِّر الفاجر:

+ يقول القديس بولس الرسول: «وَأَمَّا الَّذِي لاَ يَعْمَلُ، وَلكِنْ يُؤْمِنُ بِالَّذِي يُبَرِّرُ الْفَاجِرَ، فَإِيمَانُهُ يُحْسَبُ لَهُ بِرًّا» (رو ٤: ٥)، فإن كنتُ أنا خاطئًا والشخص الذي أدينه خاطئًا، لكني آمنتُ من كل قلبي أن الله قادرٌ أن يُبرِّر هذا الخاطئ الفاجر الذي أدينه؛ فإيماني هذا يُحسب لي برًّا، وأصير أنا نفسي، الإنسان الخاطئ، شخصًا مُبررًا من قِبل الله ... على أن إثبات إيماني هذا، أو دليل إيماني هذا هو أن يكون من كل القلب بلا أدنى تشكُّك، مصحوبًا بصلوات حارة قلبية من أجل خلاص نفسه، وبقلب ممتلئ بالحب نحوه، ونفس متألِّمة متنهِّدة من أجله، هنا يُحسب لي إيماني هذا برًّا ... مع أني لم أجاهد ولم أتعب ولم أعمل أعمالًا جهادية في الفضائل؛ لكنني أتبرَّر مجانًا.

هَب أنك واقفٌ أمام الله في اليوم الأخير، وطلبتَ منه أن يُدخلك إلى ملكوته، فقال لك: "إنك رجلٌ خاطئ كيف تدخل، فليس مولود امرأة يتزكَّى"، فتقول له: "إني لم أدِنْ الخاطئ الفاجر، وأومن أنك قادر أن تُخلِّصه، لذلك أنا أطلب قبولي مع أني خاطئ"، حينئذ تسمع الصوت المُفرح: "ولا أنا أدينك"، فإيمانك هذا يُحسب لك برًّا ...

هناك قصة في بستان الرهبان عن راهب كان متهاونًا في حياته، وعند موته وجده الآباء في حالة فرح وسلام، فسألوه عن سبب هذه السعادة، فقال لهم: "إني لم أدِنْ أحدًا في كل حياتي، لذلك عندما قُدِّم إليَّ كتاب حياتي، للوقت صرخت إلى الله وقلتُ: نعم إني أعلم أني متهاون وخاطئ ولكني لم أدِنْ أحدًا في حياتي. ففي الحال نظرتُ وإذا كتاب خطاياي قد تمزَّق بناء على الوصية القائلة «لا تدينوا لكي لا تدانوا»" (قول رقم: ٤٠١).

---

(١) من كلمات الأب متى المسكين في وادي الريان في الفترة ما بين سنة ١٩٦١ إلى سنة ١٩٦٩م.

+ إيماني بالله الذي يُبرِّر الفاجر يجب أن لا يتوقَّف عند حدِّ الإيمان النظري، بل ينبغي أن يكون عاملًا فيَّ، ظاهرًا في مشاعري من نحو الخطاة، فأكون ساكبًا نفسي من أجلهم، ومُصلِّيًا دائمًا لأجل خلاصهم، شاعرًا أنهم مقبولون في دم المسيح، ولأجلهم أتى المسيح إلى الأرض وليس لأجل الأبرار.

ينبغي أن أتنهَّد وأئن لأجلهم وأسكب الدموع من أجل ضعفهم. إيماني هذا المُنفعل في داخلي يجعلني أتبرَّر أمام المسيح.

الإيمان بأن الله يُبرِّر الفاجر بلا قيد ولا شرط ولا أي استحقاق، يجعل الإنسان يتعجَّب ويندهش جدًّا من رحمة الله وشفقته وحنانه على خليقته المؤمنة به وبدمه.

هذا الإيمان يدفع الإنسان دفعًا إلي حب الله وعبادته من كل القلب ومن كل الفكر ومن كل النفس، وتصبح عبادة الإنسان لله لا عن خوف ولكن عن حب ... وهي أسمى درجة روحانية. وهذا ما قصده المسيح من رسالته وحياته على الأرض أن يرفعنا إلي أعلى درجة من الروحانية.

هَبْ أنك وقفت أمام الله ودنتَ إنسانًا آخر مُعدِّدًا خطاياه ذاكرًا أنه كذابٌ، نجس، زاني، ظالم ... إلخ . فقال لك الرب: إني قد برَّرته وقبلته وأدخلته إلي ملكوتي، فماذا يكون موقفك؟!

الله الذي يدين هو نفسه الذي يُبرِّئ:

في نظر العالم إنَّ القاضي الذي يُبرِّئ المُذنب يكون مُذنبًا وغير عادل. ولكن هبْ أن المتهم قد أذنب ضد القاضي نفسه، ثم وقف القاضي وبرَّأ المذنب، فهل يُحسب هذا القاضي أنه مذنب؟! علي العكس، بل يوصف بالشهامة والسماحة والصفح.

على هذا القياس نقول إن الله يُبرِّئ المذنب لأن الخطايا موجَّهة نحو الله، فإن كان الله يغفر الخطايا ويبرِّئ المذنب؛ فهو يتنازل عن حقِّه في دينونة المُذنب إليه!

ولاحظ أنَّ التبرير غير البراءة. فالبراءة هي أن يصبح الإنسان غير مذنب بعد أن تمَّت مسامحته، وأما التبرير فهو أن يتبرَّأ الإنسان بل ويُكافأ أيضًا. والمكافأة هنا هي هبات الروح

القدس وفي النهاية الحياة الأبدية.

فأي فرح هذا الذي يكون للفاجر الذي يؤمن بالمسيح والدم فيتبرَّر، لا لعملٍ عمله أو جهادٍ جاهده، بل لأنه آمن بالله الذي يُبرِّر الفاجر، فإيمانه هذا يُحسَب له برًّا! مثل هذا الإنسان تكون علاقته مع الله علاقة حب وعبادة، وتكون علاقته بالناس علاقة ودٍّ ورحمة وتعاطُف، وخصوصًا نحو الخطاة والعائشين في الخطية.

+ تخيَّل أنك مُنطرح تحت صليب الرب والدم يقطر من جنبه ... إن الدم سوف يسيل وينزل عليك ويُطهِّر ويُقدِّس ما فيك من أعضاء نجسة وشريرة، أما الأعضاء الطاهرة فلا ينساب فيها ولا يُغطيها بل يتركها ... فالدم المسفوك هو من أجل الخطاة، وهو لا يُقدِّس إلا النجسين والأشرار . أما الأبرار في أعين أنفسهم، فهو ليس لهم.

مجيء المسيح خصيصًا للخطاة والأشرار:

«اخْرُجْ إِلَى الطُّرُقِ وَالسِّيَاجَاتِ وَأَلْزِمْهُمْ بِالدُّخُولِ حَتَّى يَمْتَلِئَ بَيْتِي» (لو ١٤: ٢٣). هؤلاء هم أعضاء المسيح المتألِّمة والمتوجِّعة، المجروحون والمُزدَرى بهم في العالم، هؤلاء سوف يمتلئ بهم ملكوت السموات ... إلى هؤلاء جاء المسيح وفتَّش عنهم وما زال يفتِّش!

+ "وألزمهم بالدخول ..."، فسَّر البعض هذا القول في العصور الوسطى بأنه يجوز استخدام القوة في تعميد غير المؤمنين! ولكن هذا لا يمكن أن يكون ولا يتَّفق مع روح الإنجيل. إنَّ هؤلاء المساكين والخطاة المدعوُّون لعُرس الملك يشعرون في ذواتهم بالنقص الشديد وعدم الاستحقاق التام للدخول إلي بيت الملك ومكان الوليمة، فهم يتمنَّعون جدًّا بسبب الخجل الذي يُصيبهم من جرَّاء شعورهم الحقيقي بعدم الاستحقاق، فيُوصي السيد العبيد بأن يُلزموهم بالدخول حتى لا يظلوا خارجًا.

+ هل القديسون يشعرون بأنهم قديسون؟ وإن كان كذلك فكيف تبرَّروا إن كان الله لا يُبرِّر إلَّا الفاجر؟

القديس لا يشعر بأنه قديس؛ بل بالعكس، يشعر بعِظَم خطاياه. ولكن في الوقت

الذي يشعر فيه أنه بارٌّ يسقط من النعمة. وطالما يشعر بخطيته وجُرمه ويؤمن بالله الذي يُبرِّر الفاجر، يصير إيمانه هذا مشتعلًا في قلبه، ويتزايد الحب داخله من نحو الله وخليقته، واهبًا حياته كلها لمن أحبه وبرَّره.

+ أي عذر للخاطئ بعد ذلك إن لم يأتِ إلى المسيح؟! هل خطاياه أكثر من خطايا المرأة الزانية التي أُمسِكت في ذات الفعل؟ أم هي أكثر من خطايا العشَّار الذي أسلم نفوسًا بريئة إلى السجن والجَلد ونهب بيوت الفقراء وظَلَم المساكين؟ أم تفوق خطايا اللص اليمين الذي عاش طوال حياته في النهب والقتل؟! ليس هناك أي عذر إن اعتفى أو استكثر على المسيح خطاياه، فالمسيح من أجله قد أتى «حَيْثُ كَثُرَتِ الْخَطِيَّةُ ازْدَادَتِ النِّعْمَةُ جِدًّا» (رو ٥: ٢٠)، ففي الإنسان الذي ازدادت فيه الخطية جدًّا، يتمجَّد المسيح أيضًا جدًّا، وتعظم نعمته جدًّا.

إنَّ أعظم القديسين في الكنيسة هم الذين كانوا أعظم المُجرمين والخطاة. وقد عظمت النعمة معهم جدًّا! انظر إلى القديس أوغسطينوس الذي وصل إلى درجة روحانية عالية، كان يتخبَّط في حياة الشر والفسق. وموسى الأسود القديس العظيم والأب الروحاني كان رئيسًا لعصابة شريرة للسرقة والقتل. والقديسة مريم المصرية كانت شَرَكًا للشباب، وفي عمق النجاسة تعيش.

أخيرًا يا إخوتي: «لاَ تَحْكُمُوا فِي شَيْءٍ قَبْلَ الْوَقْتِ، حَتَّى يَأْتِيَ الرَّبُّ الَّذِي سَيُنِيرُ خَفَايَا الظَّلاَمِ وَيُظْهِرُ آرَاءَ الْقُلُوبِ. وَحِينَئِذٍ يَكُونُ الْمَدْحُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ اللهِ» (١كو ٤: ٥).

الأب متى المسكين